المحاضرة الثالثة مقياس: نظريات التنمية

إعداد: د. أمين حواس

3. مراحل النمو Stages of Growth

أكثر دعاة مدافعين عن التقليد النظري الطويل لمراحل النمو هو المؤرخ الاقتصادي الأمريكي Walt Whitman Rostow.[1] يدعي Rostow إمكانية تحقيق الانتقال من مرحلة التخلف إلى مرحلة التنمية عبر سلسلة من الخطوات أو المراحل التي يجب على جميع البلدان تخطيها، ومثل Karl Marx سعى Rostow لتقديم نظرية عالمية بديلة تُفسر التاريخ كما عبر عنه في مقدمة كتابه "مراحل النمو الاقتصادي: البيان غير الشيوعي"

" هذا الكتاب يقدم وسيلة تأريخ اقتصادي لتعميم امتداد التاريخ الحديث...من الممكن تصنيف كل المجتمعات على أساس بعدها الاقتصادي ضمن واحدة من الفئات الخمس: المجتمع التقليدي، الشروط المسبقة للانطلاق نحو النمو المستدام، مرحلة الإقلاع، الدفع نحو النضج وعصر الاستهلاك الكبير... هذه المراحل ليست بالضرورة وصفية وهي ليست مجرد وسيلة لتعميم بعض المشاهد الواقعية حول تسلسل عملية التنمية للمجتمعات الحديثة... إنها تُشكل في نهاية المطاف نظرية للنمو الاقتصادي وفي العموم نظرية تُفسر التاريخ الحديث ككل" (Rostow 1961:3).

يعتقد Rostow أن جميع الأمم تمر بخمس مراحل: المجتمع التقليدي، الشروط المسبقة للإقلاع، مرحلة الإقلاع، الدفع نحو النضج وعصر الاستهلاك الكبير، ويرى Rostow أن البلدان المتقدمة حاليا قد مرت بالفعل على مرحلة الإقلاع نحو النمو المستدام وأن البلدان المتخلفة حاليا مازالت سواء في المجتمع التقليدي أو مرحلة الشروط المسبقة وينبغي عليها اتباع مجموعة من قواعد التنمية للإقلاع بدورها نحو نمو ذاتي مستدام. بنى Rostow تحليله النظري على تاريخ بريطانيا كما فعل Marx واستخدم إطارا علميا يعرفه جيدا معظم الاقتصاديين وعلماء الاجتماع: بدت حجته منطقية ومعقولة لكثيرين لأنها كانت راسخة جدا في الديناميكية التاريخية، ليس فقط لأنها مناسبة تماما لتفسير التجربة البريطانية التي كانت منذ فترة طويلة أساس تعميمات لا حصر لها في الاقتصاد، بل لأن العديد من الاقتصاديين لم يكونوا جاهزين بعد لفهم التاريخ الاقتصادي للمناطق الأقل تقدما، وبالتالي يتوافق النموذج الذي قدمه Rostow بشكل عام مع ما يعرفه العديد من الاقتصاديين أو على الأقل ما يعتقدون أنه صحيح (أنظر الشكل 2.1).

---

[1] - هناك تاريخ طويل لدراسة "مراحل النمو" يُمكن ايجاده في نظريات التنوير المختلفة تُفسر التقدم البشري؛ المدرسة الألمانية للاقتصاد التاريخي؛ نظرية Marx لأنماط الإنتاج وفي مدارس أخرى للفكر بما في ذلك نظريات Friedrich List، Bruno Hildebrand، Karl Bucher، Gustav Schmoller، Werner Sombartو Henri Pirenne.

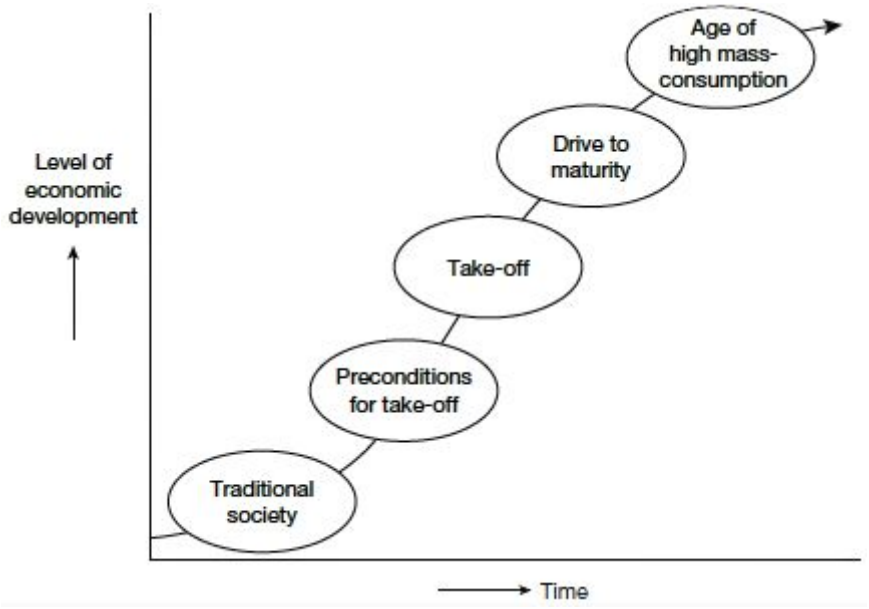

الشكل 2.1. مراحل النمو لـ Rostow.

المرحلة الأولى. المجتمع التقليدي *Traditional Society*: في تحديده المرحلة الأولى من التطور التاريخي والاقتصادي، كان Rostow غامضا إلى حد ما. شبه Rostow المجتمع التقليدي بمجتمع أوروبا في العصور الوسطى وعلى نطاق واسع أيٌّ مجتمع وُجد قبل Isaac Newton: أيٌّ مجتمع ما قبل الثورة العلمية.[2]لقد حدث تقدم علمي من وقت لآخر لكن لم تكن هناك آلية منهجية أدت لإدخال المعرفة العلمية ضمن عملية الإنتاج على أساس مستمر: كانت دوال الإنتاج (مزيج عوامل الإنتاج) تعمل على أساس العلوم ما قبل النيوتنية، التكنولوجيا البدائية والمواقف الروحية اتجاه العالم المادي، ووضعت هذه الدوال سقف حد أدنى للإنتاجية والاقتصاديات المحدودة على المستوى الزراعي (النشاط المهمين في المجتمع التقليدي). ويتميز المجتمع التقليدي بهيكل اجتماعي هرمي جامد (لا يُوجد مجال للتنقل الاجتماعي) يُسيطر فيه ملاك الأراضي على السلطة السياسية ويلعبون دورا مهيمنا في تحديد القوة السياسية والاقتصادية، وتم اشتقاق نظم القيم من "القدرية طويلة الآجل" الذي سيطر على مواقف وثقافة المجتمع التقليدي.

المرحلة الثانية. الشروط المسبقة للإقلاع *Preconditions for Take off*: بعد وصفه الموجز للمجتمع التقليدي، انتقل Rostow للمرحلة الثانية وهي الشروط المسبقة للإقلاع. في هذه المرحلة تحدث عمليتان أساسيتان: بداية التدمير الشامل لمعالم المجتمع التقليدي، وجمع القوى المجتمعية تدفعها للأمام في مرحلة الإقلاع اللاحقة.

---

[2] - صاغ Newton حساب التفاضل والتكامل وقانون الجاذبية، وبعد Newton اعتقد الأفراد أن "العالم الخارجي كان خاضعا لبعض القوانين المعروفة وقادرا بشكل منهجي على التلاعب المنتج" (Rostow 1961: 4).

ظهرت هذه الشروط المسبقة في أوروبا الغربية أواخر القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر حيث ترجمت رؤى العلوم الحديثة إلى وظائف إنتاج جديدة في الزراعة والصناعة (على سبيل المثال مزيد من الآلات على حساب العمل اليدوي أو الحيواني) في بيئة أصبحت ديناميكية عن طريق التوسع الدولي. وبفضل جغرافيتها المواتية (موقعها قبالة ساحل أوروبا الغربية) وإمكانياتها التجارية المناسبة وهيكل سياسي موات، كانت بريطانيا أول بلد يُحقق هذه الشروط المسبقة. في أماكن أخرى، لم تنشأ هذه الظروف ذاتيا (داخل المجتمع) بل خارجيا عبر التطفل أو المحاكاة أو التعرض للاحتلال من قبل المجتمعات الأكثر تقدما (حفزت هذه التأثيرات الخارجية على بدء أو تسريع تدمير المجتمع التقليدي). وتشمل القوى المجتمعية الضرورية لإحداث الإقلاع وتأسيس بنية صناعية مستدامة تلك التغييرات الجذرية غير الصناعية كل من (1) زيادة الاستثمار في وسائل النقل (والبنية التحتية) لتوسيع السوق وتخصص الإنتاج، (2) ثورة في الزراعة لإطعام سكان المناطق الحضرية المتزايد، (3) توسيع الواردات بما في ذلك رأس المال الممولة عن طريق تصدير الموارد الطبيعية، و (4) التوسع النموذجي في قطاع التعليم والصحة. تتطلب أيضا هذه التغييرات (إلى جانب زيادة تكوين رأس المال برفع حجم الاستثمار) ظهور أشكال جديدة من رجال الأعمال والمديرين في القطاعين العام والخاص، ظهور البنوك ونخب سياسية مهتمة بالتنمية الاقتصادية، ويتم إثارة هذا الاهتمام عبر ردة فعل "القومية التفاعلية" ضد الهيمنة الأجنبية أو الرغبة في مستوى معيشة أعلى والتي ستضع المناطق الأقل تقدما على مسار جديد دافع للتحديث.

المرحلة الثالثة. الإقلاع *Take off*: وهي مرحلة التوسع الحاسم تحدث على مدار عشرين إلى ثلاثين عاما وتُمثل "نقطة تحول كبيرة في حياة المجتمعات الحديثة". خلال هذه المرحلة، يتم أخيرا التغلب على الحواجز وعوامل الانسداد تعترض النمو المطرد بينما تُهيمن القوى تجعل التقدم واسع النطاق على المجتمع، لذا يُصبح النمو أمرا طبيعيا. إن الإقلاع حدث مثير في التاريخ تزامن مع بداية الثورة الصناعية أواخر القرن الثامن عشر في بريطانيا، انشاء السكك الحديدية وتطوير البنية الصناعية في الولايات المتحدة قبل الحرب الأهلية، الفترة التي أعقبت ثورة 1848 في ألمانيا، السنوات التي تلت إصلاحات Meiji في اليابان عام 1868، النمو السريع لقطارات السكك الحديدية وصناعات الفحم والحديد والصلب والهندسة الثقيلة في ربع قرن قبل الثورة الروسية عام 1917، وفترات بعد استقلال الهند (1947) والنصر الشيوعي في الصين (1949). وفق Rostow لابد من استيفاء ثلاث شروط للإقلاع: (1) زيادة معدل الاستثمار المنتج من 5 بالمئة أو أقل إلى أكثر من 10 بالمئة من الدخل الوطني. (2) تطوير قطاع صناعي كبير أو قطاعات صناعية فرعية تحقق معدلات نمو مرتفعة وتمدد نمو القطاع الصناعي الرائد اتجاه موردي المدخلات يتوسعون لتلبية الطلب المتزايد وإلى مشترين يستفيدون من إنتاجه الكبير: على سبيل المثال، توسعت صناعة المنسوجات القطنية في بريطانيا بسرعة بسبب استخدام جهاز الغزل والإطار المائي والبغال في صناعة

المنسوجات إلى جانب الطلب المتزايد على الملابس القطنية، وكان لتطوير صناعات النسيج وصادراتها تأثيرات مباشرة وغير مباشرة واسعة النطاق على طلب الفحم والحديد والآلات ووسائل النقل. في الولايات المتحدة، ألمانيا، فرنسا، كندا وروسيا مكنت السكك الحديدية عبر توسيع الأسواق تحفيز الطلب على صناعات الفحم، الحديد والهندسة التي غذت عملية الإقلاع. (3) ظهور إطار سياسي واجتماعي ومؤسساتي بسرعة يستغل الدوافع للتوسع الحديث، ما يعني ضمنيا تعبئة رأس المال عبر ابقاء الأرباح في القطاعات سريعة التوسع وتأسيس نظام مُحسن لفرض الضرائب على فئات الدخل المرتفع خاصة في الزراعة؛ تطوير البنوك وأسواق رأس المال وبشكل عام الاستثمار الأجنبي. و في ظل غياب مبادرة الدولة يجب أن تُدعم الثقافة فئة جديدة من رجال الأعمال المستعدين للمخاطرة والابتكار.

المرحلة الرابعة. الدفع نحو النضج *Drive to Maturity*: وهي فترة النمو المنتظم المتوقع والمستقل ذاتيا تتبع مرحلة الإقلاع وتحدث على فترة زمنية طويلة، حيث تنتشر التكنولوجيا الحديثة في جميع أنحاء الاقتصاد (اقتصاد متنوع ومتطور من الناحية التكنولوجية). يتم إعادة استثمار 10–20 بالمئة من الدخل الوطني في الاقتصاد بحيث تكون هناك زيادة كبيرة في دخل الفرد، وبعد 60 عاما تقريبا من الإقلاع يُصبح المجتمع "ناضجا" – حالة تكون فيها المهارات الريادية والتقنية كافية لإنتاج أي شيء يحتاجه المجتمع ويراه ضروريا سواء كان ذلك أدوات آلية أو مواد كيميائية أو معدات كهربائية.

المرحلة الخامسة. عصر الاستهلاك الكبير *High Mass Consumption Age*: وهي المرحلة النهائية حيث تُصبح القطاعات الصناعية الرائدة متخصصة في إنتاج السلع الاستهلاكية المعمرة والخدمات الواسعة والمتنوعة (على سبيل المثال السيارات) مع اهتمام ضئيل نسبيا بحاجة زيادة بناء قدرات الإنتاج. في هذه المرحلة، يرتفع الدخل الحقيقي لمستوى يسمح لعدد كبير من الأفراد الاستهلاك عند مستويات تتجاوز بكثير الاحتياجات الأساسية ويُكرس المجتمع نفسه الآن لمتعة خيار المستهلك، السعي إلى الأمن (منها الرعاية الاجتماعية) والتمتع بالفنون والترفيه. كانت الولايات المتحدة أول من وصل لهذه المرحلة في عشرينات القرن الماضي وبشكل أكثر اكتمالا مباشرة بعد الحرب، وبعد ذلك دخلت أوروبا واليابان هذه المرحلة خلال الخمسينات، وحتى عام 1960 كان الاتحاد السوفياتي يتمتع بالقدرة التقنية لدخول سوق الاستهلاك الكبير للجماهير "إذا سمح قادته الشيوعيون بذلك" (Rostow 1960 :12). من وجهة نظر Rostow، قد تختار مجتمعات أخرى اتجاه دولة الرفاهية أو أن تُصبح قوة عسكرية أو سياسية دولية.

يعتبر Rostow هذه المراحل "عالمية" لجميع المجتمعات التي تتحرك من التقليدي إلى الحديث، من الخلف إلى الأمام ومن التخلف إلى التقدم. إحدى استراتيجيات التنمية الضرورية الرئيسية التي تدفع المجتمع على

طول المسار التاريخي هي تعبئة المدخرات (المحلية والخارجية) بهدف خلق حجم استثمارات كاف لتسريع النمو الاقتصادي إلى جانب التطور التكنولوجي في سياق الظروف الاجتماعية، الثقافية والسياسية المناسبة للتحديث. احتلت نظرية المراحل لـ Rostow مكانة رائدة في الفكر التنموي التقليدي خلال الستينات عندما تأسست مواقف ليبرالية جديدة تجاه العالم الثالث: على سبيل المثال، شكلت هذه الأفكار "الأساس التاريخي" لكثير من اقتصاديات التنمية التي نوقشت سابقا، ويُمكن العثور على إصدارات من مراحل النمو في خطابات ألقاها الرئيس الأمريكي John F. Kennedy وهذا ليس مفاجئا لأن Rostow عمل أنذاك كنائب مساعده الخاص لشؤون الأمن القومي (كان له دور فعال في اشراك الولايات المتحدة في حرب فيتنام). من جانب آخر، كانت الآثار السياسية لنظرية المراحل واضحة: كان على المجتمعات التقليدية الراغبة في التطور أن تنسخ مثال الغرب المثبت بالفعل، ويجب أن تشجع المجتمعات المتخلفة والتقليدية انتشار الابتكار من المجتمعات الحديثة المتقدمة وأن تتبنى أسواقا أكثر حرية كطريقة للتكامل الاقتصادي وأن ترحب بالمساعدات الأمريكية وفي مجال الاستثمار والشراكة.